حول النظرية المعاصرة

لفلسفة التاريخ

للاستاذ الكبير محمد علي ابو ريان
ليسانسية في الآداب والدراسات العليا في
الفلسفة والاجتماع بجامعة فاروق الاول بمصر

تمثل نظرية بندتو كروتش(١) الفيلسوف الايطالي والمؤرخ المعاصر مركزاً متميزاً بين النظريات التي تفسر الأحداث والوقائع التأريخية .

وهذه النظرية متصلة أشد الاتصال بمجموع فلسفته المثالية ذلك لأن فلسفته تقوم على اعتبار التاريخ الميدان الوحيد للبحث أو للكشف الفلسفي . فما هي اذن هذه الفلسفة ؟

انها تشمل [اولا] علم الجمال . [ثانياً] المنطق . [ثالثاً] الفلسفة العملية ولها فرعان الاقتصاد والاخلاق [رابعاً] التأريخ . وتأريخ التأريخ .

ويطلق على مجموع هذه الفلسفة فلسفة العقل لانها تعتبر الظواهر العقلية مؤسسة للوجود والفلسفة تتناول الوجود الواقع الملموس فهي لذلك منهج للكشف والتقرير . أما العلوم فهي تقوم على تجريدات تتناول الحقيقة من زوايا خاصة والحقيقة في ذاتها نشاط عقلي .

وإذا ما حللنا أوجه النشاط العقلي النظري والعملي إنتهينا الى اربع تصورات خالصة تستغرق في مجموعها الحقيقة وهي الجمال والحق والخير والمنفعه ، والحقيقة في جوهرها حقيقة جمالية منطقية فليس هناك مقوم خارجي للظواهر العقلية لقد انهارت فكرة الشيء في ذاته بعد نقد (كانت) النهائي لها ، ولكن ما قيمة التجربة الفردية ! أيمكن أن نستمد من خلالها يقيناً موضوعياً .

إن كروتش يرى ان العقل هو الذي يسبغ الموضوعية على معرفتنا ، ليس العقل سامياً على الأشياء بل هو الحقيقة التجريبية تحيا ذاتها ، ولكن ألا يفضي بنا هذا الموقف الى نوع من التصورية الذاتية ؟

لابد اذن من وجود حقيقة لاترجع فقط الى النشاط العقلي الفردي ، إن الاجابة على هذا السؤال تنتظم سائر فروع الفلسفة عند كروتش .

وسنعرض هنا لحل هذا الاشكال على ضوء موقفه من التأريخ .

إن كل عقل فردي تأريخ قائم بذاته ، ويتمثل هذا التأريخ انما محدود في لحظة النشاط العقلي الماثلة أمام الذهن في الآن . أي أن العقل الفردي يحمل معه الى جانب الخاصية الجمالية المنطقية ماض ينبثق من خلال حاضر يشير الى مستقبل ، وهذه الوحدة الثلاثية تتمثل في حاضر أزلي مقيم ؛ وهكذا يصل الى صلة مشكلة الحقيقة الموضوعية ، إنه يجيب على تساؤلنا بأن الحقيقة هي التأريخ ، والتأريخ من ناحية أخرى ينطبق على العقل ذاته ، لأنه تاريخ نشاط عقلي ، وكذلك فيما يختص بالحقيقة العالمية فان التاريخ الذي أنتج العقل الفردي هو الذي أنتج الطبيعة الانسانية ، وتبقى حياة العقل موضوعا لدراسة الفلسفة ، ليس تفسير الحياة هنا بيولوجيا أو ميتافزيقيا بل هو تفسير تأريخي ، فليست الفلسفة إذن مبحثاً تقليدياً في الوجود ، أي انطولوجيا تحكمية تقوم على تصورات تجريدية بل هي منهج لعرض الواقع في صور نشاطه الخصبة ، وليس التاريخ وهو صنو الفلسفة سرداً للحوادث التاريخية بل يتمثل في الاحكام التاريخية على مدلولات الحوادث ومادام التاريخ يخضع للفلسفة أو ينطبق عليها فان الفلسفة القادمة ستتناول مشاكل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

لقد تبين لنا إذن الطابع الانساني الذي يتميز به موقف كروتش والذي يعصف بالحاجات العلمية في سبيل رغباته الفنية والأدبية واذا كان التاريخ يستأثر بالحقيقة الكلية ويدعي لنفسه التساوق أو التطابق مع العقل فما مركز التصور التاريخي في مجمل هذه الفلسفة المثالية ؟

لما كانت الفلسفة منهجاً لاكتشاف الواقع او لتقريره كان من المسلم به ان اقسام الفلسفة التي عرضنا لها ليست إلا

(١) بندكروتش فيلسوف ايطالي معاصر اهتم بدراسة التأريخ والادب والفنون الجميلة وقد كان رئيساً للوزارة الايطالية بعد الحكم الفاشيستي مباشرة . اما مذهبه الفلسفي فيندرج تحت المثالية ويتجه مع التيار الروحي للفلسفة الحديثة .

مقدمة عامة للفلسفة ، اذن يجب ان نتعدى حدود هذه المقدمة وأن ندرس العقل في حياته النابضة وفي وحدته الأورجانيكية غير المتجزئة ، فان العقل هو الحياة ، والحياة اكثر من الحركة أو وظائف الأجزاء في مجموعها ونحن ندرك هذه الحياة عن طريقين ، طريق خالص وله صورتان جمالية ومنطقية وطريق آخر يتصل مباشرة بالواقع الملموس ويتمثل ذلك في التاريخ والفن فبينما علم الجمال والمنطق يقدمان لنا الصور الاولية للواقع نرى الفن والتاريخ يوضحان لنا الواقع في صورته الكونكريتية النابضة ، وينتظم الفن والتاريخ موضوع واحد هو الحكمة ، وموضوع الحكمة الحقيقة ، وتقع هذه الحقيقة تحت ادراكنا على صورة استقرار وثبات ، ويتمثل ذلك في الأعمال الفنية ، وإما أن تقع تحت ادراكنا في تطورها وحركتها الدائمة . ويظهر ذلك في التاريخ حيث يختفي التمييز بين الفكر والواقع بين الاغراض والحوادث بين ما نسميه جسماً وعقلا وحيث تظهر الحقيقة في تمامها على صورة نشاط عقلي ، واذن فالتاريخ على هذا التفسير يصبح أرفع صور الفلسفة ، وتصبح عملية الفكر فلسفة وتاريخاً في نفس الوقت ، ذلك لأن التاريخ ينطبق تماما على عملية الفكر .

أي انه يرى ان العقل في نشاطه الدائم ، وفي تكوين قضاياه يفلسف ويؤرخ أي ان عمليات الذهن مشيدة لتاريخ العقل ولبناء الفكر نفسه ، فشتان ما بين نظرة فلسفية عميقة كهذه تنتظم التاريخ والعقل ونظرة المؤرخين الى الحوادث على انها وحدات مستقلة عن الفكر ، وأن العمل التاريخي الفني يبدأ بجمع المعلومات التاريخية ثم مضاهاتها على الأسانيد والوثائق التي تثبت صحتها ثم محاولة تفسيرها على ضوء الوقائع التاريخية المعروفة ، أما تعمق الحوادث واستكناه دلالاتها فذلك من عمل الفيلسوف او المؤرخ الحقيقي في نظر كروتش الذي يرى في التاريخ حقيقة الوجود الكاملة الماثلة للشعور فليس التاريخ مجموع حوادث جامدة انقطع عنها تيار الحياة الى الأبد وليس هو قصة الحياة تتلى في فصول متتابعة ، بل هو عمليـــة تكشف وتعبير .

هو الفلسفة في اسمى صورها ، ستؤدى بنا هذه النظرية الى ثورة خطيرة على مبادئ التاريخ العلمي والموضوعية التاريخية ذلك لأنها تفضي بنا الى افتراض مسلم اساسي وهو ان التاريخ كله معاصر ، اي ان غاية المؤرخ هو ان يصل الى فهم محيطه ويفهم نفسه ، وينتج عن ذلك عدم قبول فكرة الحوادث اللا تاريخيه اي الحوادث المستقلة عن مجري التاريخ ، اي الحوادث المجموعة الفاقدة للحياة والتي تعتبر مادة اولى او خام مبعثرة تكون كأساس لعمل تركيبي يأتي فيما بعد ، او بعبارة اخرى ليس هناك حقائق جامدة بدون مدلولات ، [اي طابع روحي] .

ليس المؤرخ الحقيقي هو الذي يسجل حوادث التاريخ الجامدة ويربط حلقاته المتتابعة بل هو الذي يتغلغل في الواقعة التاريخية ويربطها بالحياة العامة القائمة الملموسة اي انه يحمل الحادث التاريخي كمشعل يضيء به جوانب الحاضر القائم .

موضوعية الواقعة التاريخية : —

إن موضوعية الحادثة التاريخية اذن سوف لا تقوم على استقلالها عن الذهن بل على اتصالها به وخضوعها لمبضعه ، لنتناول حادثة تاريخية ولنجردها من مدلولها أي من طابعها الروحي ذلك الطابع الذي يربطها بالأفعال الانسانية ، ولنترك لها ما تبقى أي حركات العناصر الطبيعية أو على أدق تعبير مجرد علاقات رياضية فحسب ، فسنرى أننا قد جردناها من كل ما يشيد التاريخ ، ذلك لأن التاريخ هو حياة العقل الدائمة ، ليس التاريخ تسجيلا للحياة بل هو الحياة في صميمها ذلك لأن مبعث اهتمامنا بالواقعة التاريخية ليس موجهاً لذات الواقعة بل لعلاقتها بالمشاكل التي تعترضنا في حياتنا القائمة .

ولسنا نعقد مقارنة بين حادثة ماضية واخرى حاضرة عندما نربط الأولى بالثانية للوصول الى هذه الغاية النفعية ، بل إن عملية الربط هي عملية إدماج يوسع فهمنا للحاضر .

إن هذا الربط هو ما يسمح لنا باطلاق لفظ المعاصرة على التاريخ بأكمله .

المعاصرة : فما معنى هذه المعاصرة التي تفسر تغلغل الماضي في الحاضر ؟ يقصد بها اننا حينما نفكر في الماضي فان تفكيرنا هذا تكون قد استحضرته دواعي الشعور بالحقيقة القائمة في الذهن ، فالتاريخ في جملته معاصر ، أي ان مشاكله ما زالت تستثير الذهن في حاضره وما زالت تنير طريقه الحاضر . وعلى ذلك فان الحوادث التاريخية التي لا تكون لها مثل هذه القيمة أي تكون عديمة القيمة بالنسبة لتوسيع مداركنا عن الحاضر ، هذه الحوادث ترتفع عنها الصبغة التاريخية .

وعلى هذا يتضح معنى المعاصرة التي قصدها كروتش، ليست المعاصرة سمة خاصة لحقبة من التاريخ بل هي سمة عامة يتم بها التاريخ سواء كان قديماً او وسيطاً او حديثاً وهي التي تقرر ان علاقة التاريخ بالحياة علاقة وحدة وارتباط .

إن الماضي يحيا في الحاضر أي في مشاكلنا القائمة ودليل ذلك أن شخصاً لا يستطيع ان يكتب تاريخاً عن الفن او الفلسفة إلا إذا كان قديراً بدراسة الفلسفة ذاتها او الفن ذاته ، فهو ينقل هذا التاريخ الى حاضره الفكري ويحياه تحت ضوء مشاكل الحاضر.

ليس التاريخ متحفاً يحتضن بقايا الماضي البائد بل هو الحاضر الحي الماثل امام الذهن .

فهل يقبل العقل هذا الافتراض وهذا التفسير الجديد ، علينا إذن ان نعرض للتبرير الفلسفي للمشكلة .

التبرير الفلسفي للمشكلة .

إن إمكان التاريخ قائم على العامل المنطقي اي الفلسفة وقد بينا ان الفلسفة تقوم كشرط اساسي للتاريخ ، ومن ناحية اخرى الفلسفة لا يمكن ان تقوم إلا على اساس العنصر الحدسي وهذا العنصر الحدسي هو التاريخ الذي يقوم كشرط اساسي للفلسفة اى لا فلسفة بدون تاريخ ولا تاريخ بدون فلسفة ، ودليل ذلك ان المذهب الفلسفي او القضية الفلسفية ، تخضع للعامل التاريخي مادامت صادرة عن عقل فردي في ظرف وزمان معينين وبدون هذا العامل التاريخي لا يمكن ان تكون قد حدثت على ما هي عليه فالفلسفة الكنتية مثلا لم يكن في الامكان ان تظهر في عهد بركليز وذلك لأنها تقوم على حقائق العلوم التي خطت خطوات واسعة في سبيل التقدم منذ عصر النهضة ، وكذلك نظرية انشتين في النسبية لم يكن من المستطاع ان تظهر قبل هذا القرن ذلك لانها تقوم على هدم الهندسة الاقليدية وهذا الاتجاه الجديد كان قد سبق انشتين في القرن التاسع عشر في المانيا وقس على ذلك موقف برجسون الفلسفي وكيف انه قام على تحليلات سيكلوجية كانت السيكلوجيا المعاصرة قد قطعت فيها مرحلة تقدم كبير ، ومن ناحية اخرى لا يمكن للفيلسوف ان يجرد عقله من المشاكل المحيطة به وهل سلم فيلسوف مثل اسبنوزا مثلا ـ على الرغم من اعتزاله الحياة العامة ـ هل سلم من آثار الصراع الديني الذي كان سائداً في عصره ، إن الفيلسوف ينكمش داخل نفسه لا لكي يعتزل الحياة بل لكي يتجنب النظرة الخاصة القائمة على الهوى ولكي يلقي نظرة فاحصة شاملة على الحوادث والافراد في ارتباطاتها الكلية التي لا تخضع للزمن ، وعلى قدر اطلاعه التاريخي يكون اتساع افقه الفلسفي والنقد الفلسفي يقوم في معظمه على اساس المراجعة التاريخية .

التاريخ ميدان المعرفة الاول :

لقد ذهب كروتش الى ما هو أبعد من ذلك ، فليس على الفيلسوف ان يتزود بالمعلومات التاريخية فحسب بل عليه ان يجعلها ميدان معرفته الاول .

فليس الفيلسوف هو العالم الفيزيقي او الرياضي الذي تعمق ميدان بحثه ووصل الى قضايا فلسفية او افتراضات عقلية بل هو المؤرخ ، إذ بينما تقوم العلوم على تجريدات ليس لها اتصال مباشر بالمعرفة الفلسفية نرى الفيلسوف يتغلغل في اعماق مشكلات عصره مستعيناً بالتاريخ . وقد تدور هذه المشاكل حول مسائل رياضية او طبيعية او فسيولوجية ، وبالطبع يجب ان يتعرف عليها الفيلسوف ولكن لا على انه اخصائي بل ليأخذ منها القدر التاريخي الذي يمكنه من فهم المشاكل التي يكون بصددها . وعلى ذلك فان الفلسفة ستسخر لتفسير الحياة واداة هذا التفسير التاريخ ، وهو من ناحية اخرى هذه الحياة التي نسعى لتفسيرها ولاشك ان موقفاً كهذا ينطوي على بعض التعسف من حيث تقريره للعلوم من الناحية الفلسفية ، لقد وضح للعيان ان تقدم المذهب الفلسفي في عصرنا هذا مرهون بالقضايا العلمية الخصبة فقد انتقلت الفلسفة تدريجياً من جدل الأكاديميين واستقرت في أذهان العلماء المتفلسفين ، وعلى الأخص النظريات الأنطولوجية .

الحاضر الأبدي :

إن هدف كروتش من موقفه هذا هو ان يوحد بين موضوع الفلسفة والتاريخ وان يجعلها شيئاً واحداً . وهو ينتقل من هذا الموقف ؛ ومن موقفه السالف في تقرير فكرة المعاصرة ، ويثبت قضية جديدة ، وهي ان تصور التاريخ هو تصور للواقع معتبراً كحاضر ابدي .

ومعنى ابدية الحاضر انه يتضمن الوجود بأسره ، هو حاضر لا يسبقه ماض ولا يتلوه مستقبل ، إذ هو يستغرق

الوجود بأكمله ويحتوي على إمكانات للمستقبل فقط ما دمنا نسلم بفكرة التطور .

يقول كروتش في موضع آخر « إن الماضي يوجد في صميم هذا الحاضر وكذلك المستقبل اما التحديدات الزمانية قبل وبعد فهي من وضع العلوم . وعندما نتغلغل في نفوسنا ونتعمق حياتنا نجد ان حاضرنا سيبدو لنا خلال ماضينا الذي يعمل ويؤثر في تطور هذا الحاضر . وإذا فصلنا الماضي عن الحاضر تلاشت صبغة الحاضر الواقعية .

فكرة الديمومة عند كروتش وبرجسون :

إن النشاط العقلي قائم على وجود الماضي في الحاضر وهذه هي فكرة الديمومة ومقتضاها انطواء الحاضر الأبدي على الماضي وتقرير وجوده فيه ثم احتوائه على المستقبل من حيث إمكان التغير واحداث صور جديدة ، واذا انطبق هذا على الواقع فهو ينطبق ايضاً على الفلسفة ، وهذا مادعا كروتش الى ان يعتقد أن الفلسفة منهج للكشف والتقرير لا مذهب محكم مغلق لأنه سوف لايتيسر العثور على شيء ثابت او شيء نهائي مطلق بعد تفسير الديمومة على هذه الصورة ، فلايمكن إذن أن نصل الى حلول قاطعة للمشاكل الفلسفية ، والمشاكل في ذاتها تتجدد بظهور صور جديدة ، وتقوم طرافة الفلسفة على تناولها لهذه المشاكل في جدتها .

ليس من شك في ان اهم ما يستوقف اذهاننا هو ذلك التشابه بين بعض المظاهر الأساسية لفكرة كروتش عن الديمومة وفكرة برجسون (١) عن الزمان والتطور الابداعي .

إن ميزة هذه المثالية المطلقة ـ التي تؤسس التغير على الحاضر الأبدي فتجعل منه سلسلة ذات حلقات متداخلة تتوالد منها على الزمان وفي نطاقها حلقات اخرى هو انها قد حفظت القيم الروحية في وجه المذاهب المادية المدمرة ، ذلك لأن تصور التاريخ على انه في حاضر ابدي يدحض فكرة ديمومة المادة الثابتة خلال التغيرات العارضة ثم فكرة تلاش الظواهر التي تطرأ عليها ، فليست هناك مادة قائمة بذاتها تعترض حياة العقل فنشاط العقل وحده هو الذي يؤسس الوجود .

الثنائية الفلسفية :

لقد كانت الثنائية الفلسفية الروح والمادة ؛ العقل والطبيعة ، النظر والعمل ؛ الارادة والعقل ؛ لقد كانت هذه الثنائية مثار حلول عدة في الفلسفة الحديثة منذ ديكارت الى اليوم . وكانت ذا تأثير ملحوظ على مختلف نواحي النشاط البشري ، وتأثر التاريخ بها كل التأثير فظهرت التيارات المتعارضة في تفسير التاريخ ، مثل الماركسية المادية ، والمدرسة الروحية في المانيا ثم النزعات الانسانية في المدرسة الانجليزية عند كارليل وماكولي واخيراً موقف المدرسة الاجتماعية [أميل دوركيم] الذي جعل التاريخ ميدان البحث الاجتماعي ثم اخضع القيم الروحية لحاجات المجتمع ومطالبه فدل بذلك على انه استمرار للفرع المادي في تفسير التاريخ .

ما موقف كروتش إذن إزاء هذه المشكلة التقليدية الغامضة اعني مشكلة الثنائية ؟ يحاول مؤرخنا الفيلسوف ان يتخلص منها بافتراضه ان العقل هو النشاط الذي ينتظم المظاهر الكونية او ان العقل هو الحياة .

لنتساءل إذن هل نجح فيلسوفنا في تلافي الثنائية في جميع مظاهرها ؟ اكبر الظن ان هناك نوعا من الثنائية لم يتوصل كروتش الى حله وهو ان الأحكام التاريخية التي تنصب على الواقع احكام تقويمية اي انها تفترض وجود القيمة إزاء الحقيقة ، لاشك اننا إذا قررنا ذاتية القيمة فان هذا التقرير قد يهدم الفنون والتاريخ ، فهل يقع كروتش إذن في هذه الثنائية الدقيقة بين القيمة والحقيقة ، او بين الارادة والعقل . إنه قد فطن الى هذا الاشكال وتساءل ....

ومعنى هذا إذن انه يحل هذه الثنائية بتوحيده بين العقل والارادة وهما في الواقع متمايزان فتبقى الثنائية قائمة في مظهر دقيق من مظاهرها .

إجمال وتعليق

هذه فكرة عامة مجملة عن فلسفة كروتش المثالي المعاصر ، اتضح لنا خلالها انه يرى ان الحقيقة العالمية التي

(١) الديمومة عند برجسون مجرى متدفق يتصل ماضيه بمستقبله ويتطور في حياة دائمة متزايدة كلما تقدم الزمن ويقول برجسون [إن الذي يعيننا على الرغبة او الارادة او العمل هو ماضينا بأسره] . أي ان فكرة الديمومة عنده يتمثل فيها الماضي ممتداً في الحاضر ومتطوراً الى المستقبل .

البقية على صحيفة ٧٠٣